الباب الأول

الفصل الأول: الخوارج

الفصل الثانى: الشيعة

الفصل الثالث: الفرق الذانبة

الفصل الرابع: المعتزلة

الخوارج

أصل الخوارج:

ليس صحيحا ما يقال من أن الخارجى يعنى المنسوب إلى المروق من الدين والخروج عليه.

الخارجى هو كما يرى الشهرستانى: كل من خرج على الإمام الذى اتفقت الجماعة عليه[1].

وابن كثير يصف الثائرين على عثمان بـ (الخوارج) غير مرة أثناء تعرضه للفتنة وملابساتها[2].

ويرجع الدكتور محمد البهى بنواة الخوارج إلى حادثة مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، ويذكر أنه قبيل هذه الحادثة تكونت نواة أول حزب دينى إسلامى له رأيه الخاص[3].

وقد كان منهم من ينظر إلى عثمان رضى الله عنه على أنه كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4].

وإذن فقد لابس النشأة السياسية الأولى للخوارج رأى متعلق بالعقيدة، والحكم بالكفر والإيمان.

---

(١) الملل والنحل (جـ١، ص١٠٥).

(٢) البداية والنهاية (جـ٧، ص١٨٩) وما بعدها.

(٣) الجانب الإلهى (جـ١، ص٤٤) وما بعدها، وانظر أيضًا أحزاب المعارضة الدينية والسياسية لفلهوزن (٢٤).

(٤) الجانب الإلهى للدكتور محمد البهى (جـ١، ص٤٤).

وإذا كان الخوارج الذى خرجوا على عثمان وجدوا فى معسكر على رضى الله عنه مكانهم، فقد أذاقوه رضى الله عنه وكرم وجهه من نفس الكأس: خروجًا سياسًا، وحكمًا اعتقاديًا.

وأول من خرج على أمير المؤمنين رضى الله عنه ممن كان معه فى صفين: الأشعث بن قيس الكندى، ومسعر بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين الطائى.

وخرج على على يوم التحكيم: عبدالله بن الكواء، وعتاب بن الأعور، وعبدالله بن وهب الراسبى، وعروة بن جرير، ويزيد بن عاصم المحاربى، وحرقوص بن زهير المجلى المعروف بذى الثدية[1].

وهؤلاء هم المحكمة الذين قالوا لعلى رضى الله عنه لما حكم الحكمين:

إن كنت تعلم أنك الإمام حقًا فلم رضيت بحكميهما، وإن كنت لم تعلم أنك الإمام حقًا فلم أمرتنا بالمحاربة؟! ثم انفصلوا عنه لهذا السبب وكفروا عليًا ومعاوية رضى الله عنهما[2]. وبالرغم من أنهم كانوا فى البداية من الداعين إلى قبول التحكيم الذى رفضوه بعد، إلا أن تسميتهم بذلك إنما تنسب إلى موقف الرفض للتحكيم لا إلى موقف الدعوة إليه، لأن موقف الرفض هو ما ثبتوا عليه بعد ذلك.

وربما كانت التسمية راجعة إلى ندائهم ـ اثناء خروجهم السيوف على الناس فى الأسواق، وفى ساحات القتال على السواء "لا حكم إلا لله..."[3].

ولقد قاتلهم على رضى الله عنه، رافضًا دعوتهم، ودعاواهم وتكفيرهم إياه، وتكفيرهم عثمان واصحاب الجمل، والحكمين، ومن رضى التحكيم، وصوب الحكمين، أو أحدهما[4].

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٠٥) وما بعدها.

(٢) اعتقادات الرازى (ص٤٦).

(٣) التنبيه والرد للملطى (ص٥١).

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى (٧٣).

ثم قتل على رضى الله عنه فى شهر رمضان سنة ٣٨هـ[١].

وبقيت الخوارج على مذهب المحكمة الأولى إلى أن ظهرت فتنة الأزارقة[٢]. وافترقت الخوارج إلى: الأزارقة، والإباضية والنجدات والبيهسية والصفرية.

الأزارقة:

ينسب إلى نافع بن الأزرق النظر والتوغل والتعمق... وكانت له مسائل يقصد فيها إلى عبدالله بن عباس، ولقد كان يسائل ابن عباس حتى يضجره...[٣].

رأيه فى أطفال المشركين ومن خالفوه:

أقام نافع بن الأزرق بموضعه من الأهواز واستتب له الأمر هناك وجاءه مولى لبنى هاشم قال له: إن أطفال المشركين فى النار، وإن من خالفنا مشرك، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال.

قال له نافع: كفرت وأدللت على نفسك.

قال له: إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾، فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم.

فشهد نافع أنهم جميعًا فى النار ورأى قتلهم وقال: الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا توارثهم، ومن جاء منهم فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، بناء على قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ وهؤلاء كمشركى العرب لا نقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى (ص٨٠) والملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٠٧).

(٢) التبصير فى الدين للإسفراينى (ص٢٩).

(٣) الكامل للبرد (جـ٢، ص١٧٩) وما بعدها.

وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم..)[1].

ولقد كان من السهل الرد على احتجاج الرجل بمقالة نوح عليه السلام ببيان أنها تنطبق على المجموع لا على الجميع فردا فردا، لولا سرعة اندفاع عند الخوارج فى الرأى والسلوك معا، وبذلك خرجوا على الأصل الثالث خروجا نوعيا، فجعلوه جدالا بالسلاح.

رأيه فى القعد:

وذهب نافع إلى نفس الرأى بالنسبة للقعد[2]، تكفيرًا وقتلا، مستدلا بقوله تعالى ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وقد كان من السهل أيضا الرد على هذا الاستدلال بأن الآية لا تجعل العذاب فيهم جميعا ولكن فى بعضهم ممن يصل إلى حد الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لولا خروج الخوارج على أصل محدودية الجدل بتوسيع دائرته كيفا بالسيف.

والأزارقة فى الجملة ذهبوا إلى:

أن مخالفيهم مشركون، فهم فى ذلك زادوا على ما ذهبت إليه المحكمة الأولى من كفرهم.

وإلى أن القعدة عن الهجرة إليهم مشركون وإن كانوا على رأيهم.

وإلى أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون فى النار.

وإلى أن التقية لا تحل[3].

---

(١) المصدر السابق (١٧٨).

(٢) القعد له معان عدة من بينها الذى لا يمضون إلى القتال. والقعدة ويفتح نوع من الجلوس، يكون للذكر والأنثى والجمع كذا فى القاموس المحيط.

(٣) المصدر السابق (جـ٢، ص١٦٧).

وإلى إنكار رجم الزانى.

وإلى إنكار حد قاذف المحصن، بخلاف قاذف المحصنة[1].

وهم بعد ذلك لا يكفرون أحدًا من أهل مقالتهم فى دار الهجرة، إلا من يقتل رجلًا مسلمًا فإنهم يقولون: المسلم حجة الله، والقاتل قصد لقطع الحجة[2].

وإذا كان من المشهور أن الأزارقة كانوا من أشد فرق الخوارج بأسًا، وهذا ما يبدو من آرائهم واعتقاداتهم، فيظهر أن ذلك كان راجعًا إلى تقعيداتهم المذهبية القاسية، أما فى تصرفاتهم العملية فإن الملطى يرى أن الأزارقة أقل الخوارج شرًا، لأنهم لا يرون إهراق دماء المسلمين، ولا غنم أموالهم، ولا سبى ذراريهم، كما كانت المحكمة تسارع إلى قتال الناس، أيًا كانوا، فى الأسواق، أو فى اجتماع يوجدون فيه...[3].

وهنا يحق لنا أن نلمح تطورًا فى الخوارج: ما بين المحكمة الأولى والأزارقة، إذ يضاف إلى السلوك العملى المباشر، التقعيد الذهنى المذهبى.

وهذا هو فى نفس الوقت ما أدى بهم إلى انقسامات سريعة متوالية.

النجدات:

خرج نجدة على نافع بن الأزرق لقوله بتكفير مخالفيه، والقعدة من موافقيه.. وذهب إلى اليمامة، وكتب إليه يقول بعد أن ذكر منزلته فى التقوى والعدل من قبل: (تجرد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك: فاستهالك، واستهواك، واستغواك، وأغواك فغويت.

فأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعد المسلمين وضَعَفَتهم فقال جل ثناؤه:

---

(١) المقالات للأشعرى (جـ١، ص١٥٥) وما بعدها، والفرق بين الفرق للبغدادى (٨٣) وما بعدها، والتبصير فى الدين للإسفراينى (ص٢٩).

(٢) الكامل للمبرد (جـ٢، ص١٨٥).

(٣) التنبيه والرد (ص٥٤).

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، ثم سماهم أحسن الأسماء فقال: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾.

ثم استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، وقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، وقال فى القعد خيرًا، وفضل الله من جاهد عليهم، ولا يدفع منزلةُ أكثر الناس عملًا منزلةَ من هو دونه، أو ما سمعت قوله عز وجل: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم..

ورأيت ألا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها)[1].

وكان نجدة يرى:

أن من أصر على الصغيرة مشرك:

وأن من ارتكب الكبيرة غير مصر عليها ولا مخالف لجماعته (النجدات) مسلم.

وأن أصحاب الحدود من موافقيه داخلون فى ولايته، وأن الله ـ لعله ـ يعذبهم فى غير نار جهنم، ثم يدخلهم الجنة.

وأن من استحل باجتهاده محرمًا معذور فيما سوى: معرفة الله ومعرفة رسله، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فذلك واجب معرفته على كل مكلف.

وأسقط حد الخمر.

وذهب إلى إقرار مبدأ التقية، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾، وإلى نفى ضرورة الإمامة، وأن على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم، فلا يكونون بحاجة إلى إمام، فإذا أقاموه جاز[2].

---

(١) الكامل للمبرد (جـ٢، ص١٧٧).

(٢) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١١٢).

الإباضية: الإباضية أتباع عبدالله بن إباض التميمى الذى ولد فى خلافه معاوية، وكتب رسالته التى أرسلها إلى عبدالملك بن مروان فى أيام خلافته ـ ٦٥هـ إلى ٨٦ هـ[١] بناء على طلب الأخير.

وهى الرسالة التى ينظر إليها الإباضية على أنها كانت تعبيرًا صادقًا صريحًا عن موقف الإباضية من الأحداث السياسية ورؤيتهم لها، وأنها تحوى بلورة للفكر الإباضى وأصول المذهب كما هو معروف لجميع الإباضية، وهذه الرسالة وإن كان كاتبها عبدالله ابن إباض إلا أنها تحوى فكر جابر بن زيد وعلمه فى نفس الوقت، لم يتعرض جابر لكتابتها أو كتابة مثلها لأن دور جابر كان خافيا على أهل البصرة، ـ جريا على مبدأ التقية الذى أخذوا به ـ بينما كان عبدالله بن إباض يقوم بدور المجاهد علنا.

وفى هذه الرسالة يبين ابن إباض رأى الإباضية فى عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأما ما أخذه عثمان من منهج فى حياته وإصراره عليه بالرغم من نصح الناصحين له، وإبعاده خيار الصحابة ونفيه لهم كان هو السبب فى الفتك به، والقضاء عليه!، ورأيهم فى معاوية رضى الله عنه أنه لم يكن أحد أترك لحكم الله ولا أسفك لدم حرمه الله منه!![٢].

والإباضية (يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية، ويأخذون بسنة أبى بكر وعمر كما يأخذون بسنة عثمان وعلى فى صدر خلافتهما الأولى حتى غير الأول وبدل!!، والثانى قبل التحكيم، ولم يأخذوا شيئا عمن ولى الأمر من الأمويين، وإنما كان لهم إمامهم الراسبى، ثم جابر بن زيد ثم أبو عبيد ومن خلفه...

والإباضية قد فارقت كل الفرق الأخرى...

---

(١) بحوث فى المعتزلة لنلينو (ص٢٠٤).

(٢) انظر كتاب (الإمام جابر بن زيد وآثاره فى الدعوة) للدكتور صالح بن أحمد الصوافى نشر وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان الطبعة الثالثة عام ١٩٩٧ ص٢٣٢ـ٢٤٠.

وهم يرون أن الإيمان قول وعمل ونية واتباع السنة...)

وهم يدينون (بالبراءة ممن أثبت الإيمان لمن لا يجتنب محارم الله وانتهكها وعمل بمعاصيه وشك فى وعد الله ووعيده).

وجمهور الإباضية رغم أنهم يتولون المحكمة الأولى وعلى رأسهم عبدالله بن وهب الراسبى، إلا أنهم لم يوافقوا الأزارقة ومن والاهم من بعده، بل تبرأوا منهم، ولم يذهبوا مذهبهم وهم يبرءون من ابن الأزرق ويرون أنه أحدث وارتد وكفر، وهم يتصورون الخروج على أنه مروق من الدين وردة، ولذا لا يرون فى الخروج السياسى موجبا لتسمية من قام به خارجيا، ويرون أن الإباضية قد انفردوا بالتمسك بمبادئ الإسلام.[1]

وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كَفر كُفر النعمة لا كُفر الملة.

وتوقفوا فى أطفال المشركين، وجوزوا تعذيبهم فى الآخرة، وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلًا.

ثم اختلفوا فى النفاق: أيسمى شركًا؟ قالوا: إن المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا موحدين إلا أنهم ارتكبوا الكبائر فكفروا بالكبيرة لا بالشرك[2].

ومرتكبو الكبائر وإن كانوا كفار نعمة فحسب، إلا أنهم فى النار خالدون[3].

وبعض الإباضية ذهبوا إلى أن الاستطاعة والتكليف مع الفعل، وأنها هى التخلية، وذهب الكثير منهم إلى أنها ليست التخلية بل هى معنى فى كونه كون الفعل.

---

(١) انظر كتاب (الإمام جابر بن زيد العمانى وآثاره فى الدعوة) للدكتور صالح بن أحمد الصوافى، نشر سلطنة عمان الطبعة الثالثة عام ١٩٩٧ ص٢١٧-٢٢٩.

(٢) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٢١). وما بعدها.

(٣) الكامل للبرد (جـ٢، ص١٨٠).

وكان الكثير منهم يقول: إن أعمال العباد مخلوقة لله، وأن الله سبحانه لم يزل مريدًا لما علم أنه يكون أن يكون، ولما علم أنه لا يكون ألا يكون، وأنه مريد لما علم من طاعات العباد ومعاصيهم، لا بمعنى أنه أحب ذلك، ولكن بمعنى أنه ليس بآب عنه ولا بمكره عليه[1].

ويتفق الإباضية مع المعتزلة فى أمور، منها أن القرآن مخلوق[2] واستحالة رؤية الله فى الآخرة، وخلود مرتكب الكبيرة فى النار إذا مات بغير توبة، وتأويل الميزان والصراط وما يشبهه تأويلًا مجازيًا[3] ولقد افترقت عن الإباضية: الحفصية، والحارثية، واليزيدية أصحاب طاعة لا يراد بها الله[4].

ويحرص الإباضية على نفى وصف الخوارج عنهم على أساس أن هذا الوصف يعنى (أنهم خارجون على الدين ومارقون) وبناء عليه يعتبرون أن إطلاق هذا الوصف عليهم إنما هو (من الدعايات الفاجرة) وأن الإباضية (لم يجمعهمم جامع بالصفرية والأزارقة ومن نحا نحوهم إلا إنكار الحكومة بين على ومعاوية)[5].

وليس صحيحا أن وصف الخوارج يعنى ذلك، فقد بينت المصادر التى ذكرناها فى بداية البحث أن الوصف الذى تعنيه الكلمة بوجه عام بحيث يشمل فرقهم جميعا إنما هو موقفهم من التحكيم والخروج على الإمام.

البيهسية: لما ورد كتاب نافع بن الأزرق إلى المحكمة وفيهم عبدالله بن إباض وأبو بيهس، أعلن أبو بيهس مخالفته لنافع ولابن إباض معًا[6] وقال: (أنا أقول إن

---

(١) المقالات (جـ ص١٧٤، ١٧٥).

(٢) يذكر الأشعرى أن الخوارج كلهم يقولون بأن القرآن مخلوق: المقالات (جـ١، ص١٧٤).

(٣) نلينو: بحوث فى المعتزلة (ص٢٠٤)، وليس صحيحا أن المعتزلة جميعًا يؤولون الميزان، يقول القاضى عبدالجبار (والمراد الميزان المتعارف.. ولا وجه لتأويله بالعدل متى أمكن حمله على الحقيقة) شرح الأصول الخمسة ص٧٣٥-٧٣٨.

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى (ص١٠٤).

(٥) انظر كتاب الإمام جابر بن زيد العمانى للدكتور صالح بن أحمد الصوافى ص٢٢٣.

(٦) انظر (ص٧٩) من هذا الكتاب.

أعداءنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحل لنا الإقامة فيهم، كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة، وأحكام المشركين تجرى فيها، وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام، وأن حكمهم عند الله كحكم المشركين، وأن الدار دار كفر، والاستعراض فيها جائز، وإن أصيب من الأطفال فلا حرج)[1].

وقالت البيهسية: إن من واقع ذنبًا لم نشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالى ويحد، ولا نسميه قبل الرفع إلى الوالى مؤمنًا ولا كافرًا. وقال بعضهم ـ العوفية ـ إذا كفر الإمام كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد[2]. وذهب أبو بيهس إلى أنه لا يسلم أحد حتى يقر: بمعرفة الله، ومعرفة الرسول، ومعرفة ما جاء به جملة، والولاءة لأولياء الله سبحانه، والبراءة من أعداء الله، وما حرم الله سبحانه مما جاء فيه الوعيد فلا يسع الإنسان إلا علمه ومعرفته بعينه وتفسيره.. ومنه ما ينبغى معرفته باسمه، ولا يبالى ألا يعرف تفسيره وعينه حتى يبتلى به.. وعليه أن يقف عند ما لا يعلم، ولا يأتى شيئًا إلا بعلم[3].

الصفرية:

خرج أبو بلال مرداس الخارجى فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، وبعث إليه عبيد الله بن زياد بعباد بن أخضر التميمى فقاتله بنوج وقتله مع أتباعه.

وبإمامة أبى بلال تمسك الصفرية، كما تمسكوا بإمامة عمران بن حطان الدوسى من بعده، وبموالاة عبدالله بن وهب الراسبى، وحرقوص بن زهير من المحكمة الأولى[4].

---

(١) المقصود بالاستعراض ما كان يفعله المحكمة من الخروج على الناس بالأسواق وضربهم بالسيوف. والنص من الكامل للمبرد (جـ٢، ص١٧٩).

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى (١٠٩) والمقالات للأشعرى (جـ١، ص١٧٩).

(٣) المقاولات للأشعرى (جـ١، ص١٧٨).

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى (٩١) والتبصير للإسفراينى (ص٣١).

فالصفرية من شعب الخوارج انشعبت بالقضاء على أبى بلال، والصفرية هم أصحاب زياد بن الأصفر[1]، والجمهور على أن نسبتهم إليه[2] وإن كنا نجد أن بعض المؤرخين ينسب إلى صالح بن مسرح، أنه رأس الصفرية[3].

وقد ذهب الصفرية إلى أنه ما كان من الأعمال عليه حد واقع فلا يتعدى بأهله الإثم الذى لزمه بالحد.. زانيًا، سارقًا، قاذفًا.. لا كافرًا مشركًا. وما كان من الكبائر مما ليس فيه حد لعظم قدره فإنه يكفر بذلك، وذهبوا أيضًا إلى أن التقية جائزة فى القول دون العمل[4]، وذهبوا مذهب الإباضية فى أمر القعد من أنهم كفار نعمة فحسب[5].

تقويم عام للخوارج:

والآن: ماذا كان الخوارج على وجه العموم؟

يقول الدكتور أحمد أمين: (.. الخوارج فى أول أمرهم كانت صبغتهم سياسية محضة)[6].

وفى رأيى أن نشأتهم السياسية كانت منذ عهد عثمان رضى الله عنه متلونة ـ إن لم تكن نابعة من ـ برأيهم فى الإيمان والكفر، ولقد كان رأيهم هذا فى الإيمان والكفر هو المحرك الأساسى لتصرفاتهم فى عهد على رضى الله عنه، ثم فى عهد معاوية على وجه التأكيد، ثم هم بعد ذلك ـ وكما يقول الدكتور أحمد أمين ـ قد مزجوا تعاليمهم بأبحاث لاهوتية، ولقد تصاعد عنصر البحث العقدى لديهم منذ ذلك الحين، دون أن تكون له الغلبة الكاملة على مزاجهم العملى.

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٢٣).
(٢) الكوثرى فى تحقيقه على التنبيه والرد للملطى (٥٦).
(٣) ابن قتيبة: المعارف (١٨٠)، وابن كثير فى البداية والنهاية (جـ٩، ص١٢) وما بعدها.
(٤) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٢٣).
(٥) الكامل للمبرد (جـ٣، ص١٨٠).
(٦) فجر الإسلام (ص٢٥٩).

والموضوعان الرئيسيان فى حصيلة الخوارج الفكرية هما، الإمامة وحكم مرتكب الكبيرة.

فالإمامة عندهم صالحة لأى إنسان يحسن القيام بها عالمًا بالكتاب والسنة. منفذًا لأحكامها، مهما كان وضعه من حيث النسب.

أما رأيهم فى مرتكب الكبيرة فقد تراوح بين الشرك، والكفر كفر اعتقاد، والكفر كفر نعمة، يجزى عليها مع ذلك بالخلود فى النار، والإسلام بشرط ألا يكون مصرًا عليها ولا مخالفًا للفرقة، بل لقد وصل الأمر عند النجدات إلى أن من استحل باجتهاده محرمًا فهو معذور، فى غير الأمور التى سقناها عند الكلام عن النجدات، وكما يقول البغدادى فإن من حكى عنهم الإجماع على تكفير مرتكبى الذنوب مخطئ.[1]

وهم فى قول بعضهم ـ الإباضية ـ بأن مرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة، يعذب بالخلود فى النار، قد سبقوا المعتزلة فى القول بالخلود فى النار لطائفة ليست كافرة كفر اعتقاد.

ويؤكد ذلك ما ذكره نلينو عن وجود ترجمة لكتاب (العقيدة) المنسوب لعبد الله ابن إباض، والذى يقال إنه وضعه فى عهد عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) وفيه القول بخلود العذاب لمرتكب الكبيرة، والقول بالوعد والوعيد مما ذهب إليه المعتزلة بعد[2]. كما يؤكده ما ذكره البغدادى فى قوله عن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد أنهما وافقا الخوارج فى تأبيد عقاب صاحب الكبيرة فى النار[3].

وإذا كان المؤرخون[4] يشيرون إلى أصالة الخوارج فى بحث مسألتى الإمامة

---

(١) الفرق بين الفرق ص٧٣.

(٢) بحوث فى المعتزلة لنلينو (٢٠٤) وما بعدها والكتاب ما يزال موضع النظر فى صحة نسبته إلى ابن إباض، ويشكك بروكلمان فى هذه النسبة على أساس غير ظاهر، تاريخ الأدب العربى (جـ١، ص ٢٥٩)، والموضوع يستحق دراسة خاصة.

(٣) الفرق بين الفرق ص١١٩.

(٤) انظر ضحى الإسلام، ج٣، ص٣٣٣، ٣٣٤.

وحكم مرتكب الكبيرة فقد كان يصح أن يضيفوا إلى ذلك بحثهم فى أحوال أطفال المسلمين والمشركين فى الآخرة، وقد رأينا جديتهم فى هذه المسألة وتشعبهم إلى الفرق بسببها.

فأما التوحيد فإن قول الخوارج فيه كقول المعتزلة[1].

وبعد:

فماذا كانت عليه أصالة الخوارج فى البحث النظري؟

علينا أن نقرر هنا بادئ ذى بدر ءأنهم لم يفقدوا فى أطوارهم كلها، وإلى وقت متأخر صفتهم المميزة فى ترجمة معتقداتهم وجدالهم مع الآخرين إلى أفعال قتالية:

فقد ظلوا إلى وقت متأخر يحملون السيوف، ونذكر على سبيل المثال، خروج الخوارج من الصفرية ببلاد أفريقية عام (١٥٣هـ)[2] وخروجهم فى سجستان، وهراو وبوشنج، ونيسابور وغيرها من بلاد الشرق فى الأعوام (٢٣٧ ـ إلى ٢٦٥ هـ)[3]، والمعارك الطاحنة التى دارت بينهم وبين الباطنية بالمغرب فى الأربعينات من القرن الرابع الهجري[4] لكن الجانب النظرى كانت له قيمته لدى الخوارج كذلك.

يقول فلهوزن: (وبالرغم من أن العلامة المميزة لهم كل التمييز هى الترجمة عن إيمانهم بالأفعال، وامتشاق السيف فى سبيل إقرارها فإنهم مع ذلك قد شاركوا فى وضع الزندقة النظرية!! أعنى علم الكلام، فقد كانوا يسألون فى مسائل تتجاوز نطاق الموروث من العقائد، ويجادلون خصومهم بشأنها... ولا شك أن الطبقة الأولى من علماء الكلام فى الإسلام قد تأثروا من الخوارج)[5].

---

(١) المقالات للأشعرى ج١، ص١٨٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠، ص١١٠.

(٣) وفيات الأعيان ج٢ من ص٤١٢ إلى ٤١٩.

(٤) معالم الإيمان للدباغ ج٣ ص٣٥ إلى ٤٣، ووفيات الأعيان ج١ ص٩٦.

(٥) أحزاب المعارضة السياسية فى صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، فلهوزن ص٣٨.

وقد كان لنافع مع نجدة مناقشات طويلة حول مبادئ كل منهما، سقنا طرفًا منها فيما سلف ويمكن استكمالها بالرجوع إلى الكامل للمبرد، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.

ولقد كان المهلب بن أبى صفرة يوقع الفرقة بينهم بما يدسه إليهم من مسائل فى العقيدة تثير تفكيرهم والجانب النظرى من نقاشهم[١].

وكان عبدالملك بن مروان يدخل فى مناظرات مع بعضهم، يخرج منها متأثرًا بما لهم من قوة الحجة وحلاوة المنطق، وبيان اللفظ وقرب المعنى. كما قيل[٢].

ويقول عنهم عبدالله بن زياد: (لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من اليراع)[٣].

ويقولون عن عمران بن حطين، والرهين المرادى ـ من القائلين بقول الخوارج الصفرية وزعمائهم ـ إنهما كانا على دهاء ومعرفة وفقه، وشعر، ولهما مسائل كثيرة من أبواب العلم بالقرآن، والآثار والسير، والسنن، والشعر...[٤] إلخ، بل إنه إذا صحت الأخبار التى يوردها المبرد فى شأن الخوارج كان لنا أن نقول إنهم أصحاب مزاج عقلى مفتوح، مطواع للشك والتنقل بين العقائد.

فقد حاجهم على كرم الله وجهه ـ بعد أن حاجهم ابن عباس فى مسألة التحكيم فكان من ردهم عليه (.. حكمت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأنا قد كفرنا، ونحن تائبون، فأقرر بمثل ما أقررنا وتب ننهض معك إلى الشام...)[٥].

وفى موقعة النهروان حمل رجل على صف على وقتل من أصحابه ثلاثة (فخرج إلى على رضى الله عنه فقتله على، فلما خالطه السيف قال: حبذا الروحة إلى الجنة فقال عبدالله بن وهب الراسبى ـ من زعماء الخوارج ـ ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار؟

---

(١) الكامل للمبرد ج٢، ص٢٢١.
(٢) المصدر السابق ص١٥٢.
(٣) المصدر السابق ص١٦٠.
(٤) المصدر السابق ص١٦٦.
(٥) الكامل للمبرد ج٢ ص١٢٨.

فقال رجل من سعد: إنما حضرت اغترار بهذا وأراه قد شك، فانخذل بجماعته من أصحابه..)[1].

ويبدو أنهم فى موقفهم من سيدنا على وتكفيرهم إياه، بل ووسمهم إياه بالشك[2] إنما كانوا يعكسون اضطرابهم النظرى عليه كرم الله وجهه.

وهم بذلك يخرجون على الأصل الأول بطريقتهم الخاصة فى الاندفاع: عقليا وعمليا.

كذلك فإننى أفسر تصلبهم وتنطعهم فى كثير من مواقفهم بأنه كان رد فعل لما كان يأكل قلوبهم من اضطراب، ونظرًا لحرصهم على النجاة فإن هذا الاضطراب كان يثير فيهم الخوف الشديد، وعند الخوف الشديد يكون العنف الشديد.. ومن هنا كانوا يستثارون إزاء مخالفيهم من المسلمين بينما يكونون فى منتهى الهدوء أمام أصحاب الأديان الأخرى، يدل على ذلك قتلتهم الشنيعة لعبدالله بن خباب، لرأيه فى موالاة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، بينما هؤلاء القتلة أنفسهم يعاملون نصرانيًا معاملة مهذبة رقيقة (.. ساموا رجلًا نصرانيًا بنخلة له، فقال: ما هى لكم. فقالوا. ما كنا لنأخذها إلا بثمن؟ قال: ما أعجب هذا؟ أتقتلون مثل عبدالله بن خباب ولا تقبلون منى جنى نخلة..)[3].

من هنا فإننى لا أتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين من انهم كان من شأنهم أن يتطوروا إلى ظاهرية[4].

فقد رأينا كيف كانوا سابقين للمعتزلة فى بعض الآراء، وكانوا قريبين منهم فى آراء أخرى.

وكيف يكونون كذلك والأشعرى يقول عنهم: إنهم لا يقولون بعذاب القبر[5]

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٣١.

(٢) يقولون لابن عباس رضى الله عنه: (إذا كان على على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يسب) الكامل للمبرد، ج٢، ص١٥٥.

(٣) المصدر السابق ج٢، ص١٤٤.

(٤) ضحى الإسلام ج٣، ص١٩٠، ١٦١.

(٥) المقالات ج١، ص١٩٠، ١٩١.

وكيف يكونون كذلك، وهذا ابن النديم يشير إلى كتب متكلميهم، ويقول: إن الكثير منها محفوظ مستور، ويذكر كتبًا لعدد كبير منهم تناولت: المخلوق ـ التوحيد ـ الرد على المعتزلة فى القدر ـ الرد على المرجئة ـ الرد على الغلاة وطوائف الشيعة ـ الاستطاعة ـ الإمامة ـ الرد على الملحدين[1].

وكيف يكونون كذلك وكتاب (العقيدة) لعبدالله بن إباض هو من أوائل الكتب التى وضعت فى علم الكلام إن لم يكن أولها على الإطلاق فيما أعلم[2].

والذى أراه لفهم طبيعة الخوارج، هو أن ننظر إليها فى ضوء مجموعة من العوامل يرجع بعضها إلى الإسلام وبعضها الآخر إلى طبيعة البيئة الاجتماعية للعرب.

فالذى يرجع إلى طبيعة الإسلام: الحرص على المعرفة والتعلم وتطبيق العلم فى واقع الحياة.

والذى يرجع إلى الطبيعة الاجتماعية للعرب الاعتداد بالرأى الشخصى والاندفاع وراءه فى مسالك الحياة العملية.

ومن مزيج هذه العوامل كان مزاج الخوارج، نظر وعمل فى وقت، ونحن لا نتمكن من فهم هذا المزاج على وجهه الصحيح، إذا ما أسقطنا أحد هذه العوامل من الاعتبار.

كذلك لابد لفهمهم فى هذا السياق من أن ندرك جرأتهم العقلية المتسمة بالاندفاع وعدم التثبت، مما يمثل تهديدا خاصا للأصل الأول.

وممارساتهم العملية المتسمة بالاندفاع وتدمير وحدة الأمة أيضا مما يمثل عدم انضباط بالنسبة للأصل للثانى.

وحدتهم فى الجدل وتحويله إلى مقارعة بالسيوف مما يمثل تمردا على الأصل الثالث. والله أعلم.

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٨- ص ٢٥٩.

(٢) بحوث فى المعتزلة ص ٢٠٤ وذلك على فرض صحة نسبة هذا الكتاب إليه وهى مسألة ما تزال محل بحث